

## الشعبيّات اليمينيّة القوميّة والدينيّة في العالم المعاصر - الأسباب والتداعيات -

### ياسر قنصوه

عندما نفكّر في الشعبويّة Populism - بوصفها مصطلحاً - فإن أول ما يتبادر إلى الذهن: أي مصطلح يكون؟ وكم من الدلالات يحملها محتواه؟ وإلى أي مدى مؤثر تمارس فاعليّاته دورها في الحياة السياسيّة؟ غير أن ما من مصطلح سياسي أثار هذا اللغط وتلك الشكوك مثلما حدث مع مصطلح الشعبويّة. وتثير تعدّدية الخطابات الشعبويّة اليمينيّة عدداً من الأسئلة حول أسباب النشأة والحضور المكثّف والمؤرّق للجماعات الشعبويّة على المستوى السياسي، وما تطرحه من رهانات خطابيّة قوميّة ودينيّة مدوية على الساحة العالميّة المعاصرة. وتأخذنا الأسباب وفوضى الرهانات والمزايدات إلى أسئلة أخرى تتعلّق بتداعيات المخاطر المحتملة من قبل الشعبويّة اليمينيّة على التوجهات السياسيّة النظرية والعملية معاً. ولعل محاولة الإجابة عن الأسئلة المثارة آنفاً تفسح مجالاً لقراءة نقدية واعية بظاهرة الشعبويّة على صعيد عالمنا المعاصر.

■ أستاذ الفكر السياسي - جامعة طنطا - مصر.

## 1 - الشعبويّة: مصطلح تطارده الشكوك!

في الآونة الأخيرة لا ينقطع الحديث في الكتابات والمنتديات السياسيّة عن مصطلح بدأ يظهر على سطح الممارسة السياسيّة على نحو «ديماغوعي» Demagogue<sup>1</sup>، وتحت إلهام الخطابات الحماسيّة الملتهبة من الزعيم (الكاريزما) لا تلقى الجماهير بالألمة لما هو قانوني أو شرعي؛ إذ تصبح الجماهير في ظلّ كلمات ذات وقع ساحر خاضعة لحقيقة واحدة، وهي أنها ذاتها الحقيقة المطلقة، ومن ثم تتعالى هذه الحقيقة على النخب والنظم السياسيّة، وكل ما يحمله التنظير السياسي من عقلانية.

وتطرح الشعبويّة نفسها بوصفها سيادة الجماهير في ظل زعامة كاريزميّة، في مقابل «النخب»، والتي ينظر إليها من قبل وجهة نظر شعبيّة بوصفها أقلية معيقة للجماهير أو الشعب في محاولة الوصول إلى الأهداف الوطنيّة العظمى. ويحمل المصطلح وجهين عند التعريف:

**الأول:** أنه يطلق على الحركات الشعبويّة الزراعيّة agrarian populism، وهي مجموعة من الحركات الراديكاليّة، والمذاهب الاقتصاديّة والاجتماعيّة المهتمة بمصالح الفلاحين peasants، وصفار المزارعين. بينما يمثل الثاني: حركات سياسيّة أو شعبيّة سياسيّة تتبدى في صورة عدد من التوجهات والفاعليات والوسائل القائمة على الاحتكام إلى الشعب. وأقدم تلك الحركات ما يسمى جماعة «إرادة الشعب» narodniki (باللغة الروسيّة)، وترى تلك الجماعة أن القيم الحقيقيّة والمجتمع المثالي يوجد في القرية. وفي أمريكا نادى الحزب الشعبوي Populist Party في تسعينيات القرن التاسع عشر بالراديكالية الزراعيّة، أو الاحتجاج على التحكم بأسعار منتجات المزارع من قبل أسواق بعيدة، وقد رأى من خلالها الرأسماليّة قوة

1 - لفظ ازدرائي يُطلق على السياسيين الشعبويين الذين يثيرون الجماهير، ويحرضونها على القيام بسلوك غير قانوني عبر التلفظ بعبارات غير عقلانية وخطابات تلهب المشاعر، ومن ثم تصبح الجماهير جماعة من الخارجين على القانون.

Frank Bealey, the Blackwell Dictionary of Political Science, Blackwell publishing, 1999, p.98.

معادية... ولا تثق الشعبويَّة في الهيئة التشريعيَّة (البرلمان)، وتميل إلى الإيمان بالديمقراطيَّة المباشرة<sup>2</sup>.

وربما يكون السؤال الأهم - في سياق محاولتنا إدراك أبعاد ظاهرة تحمل عنواناً مستغرباً ولافتاً في المعجم السياسي - هو: الشعبويَّة، هل تحمل دلالة هذا المصطلح أيديولوجيا سياسيَّة يمكن الكشف عن ملامحها بتحليل خطابها، أو بيان أهدافها السياسيَّة من خلال مقولات نظرية يمكن إدراجها في إطار التنظير السياسيَّة، ومن ثم إمكانية التطلُّع إلى نظرية سياسيَّة جديدة؟ ومن وجهة أخرى يبدو المنطق السياسي في صورته

العملية أكثر انطباقاً على مصطلح الشعبويَّة من خلال نفعية تقسم المجتمع إلى قسمين أساسيين: النخبة السياسيَّة والتي تعد تمثيلاً للنظام السياسي في صورته المؤسَّساتيَّة الديمقراطيَّة، ويجسد القسم الآخر: الشعب، وعبر هذه القسمة تقودنا الجماعة الشعبويَّة إلى مبتغاهَا أو لعبها السياسي، وهو حتمية النزاع بين الشعب والنخبة.

وفي هذا الإطار يرى «إرنست لاكلو Ernest Laclau أن الشعب - بوصفه مكوناً خطابياً - يمثِّل متغيراً خاضعاً للنزاع، وليس كياناً ثابتاً<sup>3</sup>، غير أن

هذا المتغيِّر في سياق ظاهرة الشعبويَّة لا بد أن يقوم على ثوابت تشكيل بنية وفعل وملتق، وارتباط تلك الثوابت بخصوصيَّة قوميَّة أو دينيَّة تتيح الفرصة للتمكين والهيمنة، وتمثِّل بنية الثوابت أسلوباً وتكتيكاً، وخطاباً معيَّناً، كما يُعدُّ الفعل أو الممارسة العملية أمراً ثابتاً في وجود فاعل سياسي أو قيادة كاريزميَّة، تلهب المشاعر، وتؤجج الحماسة في الجماهير المتعطَّشة لتحقيق

**تطرح الشعبويَّة نفسها بوصفها سيادة الجماهير في ظل زعامة كاريزميَّة، في مقابل «النخب»، والتي ينظر إليها من قبل وجهة نظر شعبويَّة بوصفها أقلية معيقة للجماهير أو الشعب في محاولة الوصول إلى الأهداف الوطنيَّة العظمى.**

2 - The Blackwell Encyclopedia of political Thought, Ed, by David Miller, Blackwell publishing, 2004, pp.393-94.

3 - E. Laclau, on populist Reason, Verso, London, 2005- 2018.

3 - ينظر في:



مطالبها وأهدافها، ويظل الشعب ثابتاً بوصفه متلقياً فحسب، وترتبط هذه الثوابت بالخصوصية أياً كان نوعها: قومية أو دينية.

وتواصل الجماعات الشعبوية دَفْعَ دلالة المصطلح إلى أقصى حراكها تطرفاً، من خلال إيجاد قطيعة عميقة بين الشعب والنخب، إذ تبدو سيطرة النخب على مؤسسات النظام الديمقراطي - من وجهة نظر شعبيّة - انتهاكاً لسيادة الشعب على نفسه وبنفسه، تحت ما يسمى «بديمقراطية القلة» Democracy for the Few.

وتناهض الشعبوية - بكل قواها الخطابية وممارساتها السياسية - هذا المفهوم الديمقراطي، الذي يجعل من الديمقراطية غير المباشرة أو الديمقراطية التمثيلية (النيابية) حكراً على القلة أو النخبة، مما يقوّض فكرة أن الديمقراطية هي حُكْم الشعب؛ ”إذ يصعب تحقق إصلاح جذري في ظل النظام الحالي القائم؛ نظراً لأن أولئك الذين يجدون التغيير في مصلحتهم لا يملكون القوة لتحقيقه، بينما لا يجد من يملكون القوة في التغيير مصلحة لهم، فهم لا يميلون للانتماء لطبقة، ولا يعود الأمر لأن أصحاب المناصب عاجزون عن قطع الخطوات المؤدية إلى التغيير الهادف لتحقيق المساواة؛ بل لأنهم لا يريدون السير في هذا الطريق. فالصفة التي تفرض جدارة قضية لا تستند إلى منطقيتها وعلى الأدلة التي تثبت هذه الجدارة، بقدر ما تفرضها قوة من يروجون لتلك القضية<sup>4</sup>.

ونمضي قُدماً مع المصطلح ليكشف لنا عن قطيعة أخرى ليست بين الشعب والنخب أو القلة الحاكمة، بل نحو خصوصية إثنية، تضع حداً فاصلاً بين أفراد الشعب الأصليين والدخلاء أو المهاجرين، ويتحوّل الحدّ الفاصل إلى عدائية تبحث عن صورة العدم أياً كان نوعه.

وإذا كانت الشعبوية قد رفعت راية الشعب بوصفه كياناً موحداً متجانساً، ويمكن أن تكون الناطق السياسي باسمه؛ فإن الحركات الشعبوية ذاتها

4 - مايكل بارنتي، ديمقراطية للقلة، ترجمة: حصة المنيف، المشروع القومي للترجمة (464)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص 540..

لا تمثل كتلة واحدة؛ بل تبدو موزعة بين تيارات مختلفة ومتباعدة، فهي تيارات يسارية وقومية أحياناً، وفي المقابل توجد تيارات شعوبية يمينية ودينية، وما بين تعددية المواقف ونقائضها إلى أقصى حد يمكن الانتباه إلى ما يشير إليه «لاكلاو» (Laclau) في تصوره لرؤية ما يسمى بالأيديولوجيا الشعبوية، التي تؤكد تماهي وانسجام الشعب، بينما من وجهة نظر لاكلو يبدو الشعب مكوناً من جماعات مختلفة لها مطالبها الخاصة والمتنوعة؛ لكنها ترتبط بحالة من التكافؤ تدعم تصوّرها بوصفها الشعب، متعالية على الاختلافات والتباينات الداخلية<sup>5</sup>. وبهذا المعنى تلعب الشعبوية وفقاً لمنطقها

**تواصل الجماعات الشعبوية  
دفع دلالة المصطلح إلى  
أقصى حراكها تطرفاً، من  
خلال إيجاد قطيعة  
عميقة بين الشعب  
والنخب، إذ تبدو سيطرة  
النخب على مؤسسات  
النظام الديمقراطي - من  
وجهة نظر شعوبية -  
انتهاكاً لسيادة الشعب  
على نفسه وبنفسه.**

السياسي على الربط بين درجة الاختلاف، والتنازع بين الشعب والنظام السياسي، وطبيعة التكافؤ بين جماعات الشعب المختلفة والمتميّزة، ويخدم هذا الربط إعادة الشعب - من وجهة نظر شعوبية - إلى محور العملية السياسية، ومن ثم النضال السياسي على الطريقة الشعبوية لتحقيق أهداف وطنية محددة.

وحيث إن النضال السياسي الشعبوي يستدعي استراتيجية لإدارة النزاع السياسي الذي فرضته الشعبوية من منطلق التقسيم المجتمعي - الشعب في مواجهة النخبة - واصطناع العدائية

مع آخر سواء بالداخل أم الخارج، ومن ثم ينفرد مصطلح الشعبوية في محتواه بتمثيل الشعبوية (الحصري) للشعب، وينجم عن هذا الانفراد رفع شعار مركزي فحواه «نحن وحدنا نمثل الشعب»، وهذا ما يطرحه «جان فيرنر مولر» (J. W. Muller). عندما يفسر صورة الشعب عند الشعبويين بوصفها خطابية وسياسية، فالشعب يتحدّد من منظور شعوبي ومن ثم يمكن تعيين من ينتمي إلى الشعب ومن يعد «خارجاً عنه». ولعل ما يقدمه «مولر»

Laclau, op.cit.



يُمكّننا من استنتاج أن القلة الشعبويّة هي من يحدد الكثرة أو الشعب. ألا يُعدّ هذا الأمر نفسه ما ينكره الشعبويون على حكم القلّة الديمقراطي، الذي يجرّد الديمقراطية من محتواها الأساسي، القائم في فكرة «المساواة» وما ينبثق عنها من حقوق سياسيّة؟ كما تتبدّى فكرة الشعب لدى الشعبويين بوصفها فكرة أخلاقيّة؛ إذ إنه من خلال البعد الأخلاقي يمكن وضع تصوّر للخير والشر في إطار نزاع سياسي بين الشعبويين، ومن يعدّونهم خصوماً، ومن هذه الزاوية يتخلّص المصطلح (الشعبويّة) مما هو سياسي متى لزم الأمر، والذي يقوم على تنوّع واختلاف الآراء ووجهات النظر، ليحمل في المقابل قيمة أخلاقيّة مطلقة؛ إذ يصبح الخلاف مع وجهة النظر الشعبويّة تجسيداً للشر أو الباطل، حيث تناضل الشعبويّة - بوصفها خيراً - ضد النخبة الشريرة التي تخدع الشعب وتخون مطالبه وأهدافه الوطنيّة.

وبناءً على التصرّح الأخلاقي لفكرة الشعب فإن الشعب لن يقبل بتعدديّة أخلاقيّة تسمح بالتنوع والتسامح، ومن ثم يتم فرض صورة وحدة الشعب الأخلاقيّة على نحو قسري، مع رصد كل التصورات والأفكار السياسيّة المختلفة والمتباينة، واتهامها بالانحراف من منطلقات أخلاقيّة، مما يستدعي ضرورة إصلاحها ومعالجتها أو استئصالها متى لزم الأمر، حيث إنها تُعدّ خروجاً عن المبادئ الأخلاقيّة الموحدة واللائقة بالشعب والوطنية الحقّة من وجهة نظر شعبويّة. وبوسعنا أن نطرح سؤالاً مهماً في سياق دراستنا لدلالة المصطلح: هل تُعدّ الشعبويّة استراتيجية سياسيّة تهبّ الفرصة لجموع الشعب أن يدخل في المجال السياسي كي تؤثر فيه بصورة معيّنة، ومن ثم يمكنها تحقيق النجاح وحصد المكتسبات لصالح حقوق الشعب الديمقراطيّة؟ أم إنها تُعدّ خروجاً عن النص السياسي الديمقراطي، وتكريساً لعنصري الأخلاق والخصوصية القوميّة / الدينية في المجال السياسي؟

وعندما نحاول الإجابة فإن ما يبدو جلياً لنا أن مصطلح الشعبويّة دالٌّ على فكرة أن النزاع هو لب السياسة، من حيث إن السياسة تمثل صراعاً أو نزاعاً يهدف إلى التمكين أو انتزاع حقوق الأغلبية (الشعب) من الأقلية

(النخبة) الحاكمة. بما يُظهر لنا أن المصطلح يخاصم ما يمكن تسميته بالحوار الديمقراطي؟ وكيف يكون الحوار من منطلق سياسي تحكمه ضرورة وجود العدائية والتخوين مع تأمين شعار جذاب يجلب الأنظار، ويؤكد عودة الديمقراطية إلى مسارها الصحيح، أليست هي حكم الشعب لنفسه وبنفسه، ومن ثم تسقط كل دعاوى ديمقراطية القلة.

من هذا المنطلق يمكن حصر دلالة المصطلح في وجهين متقابلين يحملان تناقضاً صريحاً؛ الأول: مصطلح سياسي يقوم على حشد الجماهير من أجل ممارسة سياسية إلى أقصى درجاتها وطنية، من حيث الأهداف

**بناءً على التصور الأخلاقي لفكرة الشعب فإن الشعب لن يقبل بتعددية أخلاقية تسمح بالتنوع والتسامح، ومن ثم يتم فرض صورة وحدة الشعب الأخلاقية على نحو قسري، مع رصد كل التصورات والأفكار السياسية المختلفة والمتباينة.**

والمطالب الشعبية الواجب تحقيقها، والثاني: مصطلح يناقض ما هو سياسي، بل يمثل خطراً داهماً على الممارسة السياسية، بإسقاط عنصر الحوار الديمقراطي، وإحالة الأمر إلى شعارات أخلاقية براءة حمالة أوجه قومية ودينية، وغير مدرجة في المعجم السياسي مثل: خير وشر، صادق وكاذب، أصيل ودخيل.....

## 2 - أسباب النشأة، والرهانات القومية والدينية:

هل هي نهاية السياسي؟

ربما يكون هذا السؤال هو أول وأهم الأسئلة المثارة عن الحديث في أسباب نشأة الشعبوية، غير أننا لكي نتحدث عن النهاية لا بد وأن نفهم ماذا يعني السياسي؟

توجد إشكاليات متعددة عند تعريف السياسي، وهذا ما أبان عنه رائد هذا التعريف والبحث في إشكالياته: كارل شميت Carl Schmitt<sup>6</sup> (1888 - 1985)،

6 - كارل شميت، من ألمع المنظرين السياسيين والقانونيين الألمان في القرن العشرين وأكثرهم تأثيراً، وقد نازعت نظريته السياسية الهوبزوية (نسبة إلى هوبز) التفاؤل الليبرالي حول التقدم =



عندما طرح في كتابه «مفهوم السياسي» The Concept of the Political محاولة الإجابة عن أسئلة مهمة ومحيرة، تتعلق بالنظام في مقابل الفوضى، والسلم في مقابل الحرب، وقد جاءت إجابته نتاجاً لما يسمى بنهاية عصر «الدولانية» Staiam - السيطرة الكلية للدولة على مقاليد الأمور خاصة الاقتصادية - وما يعيننا من مفهوم السياسي، والذي تفرض الممارسات السياسية الشعبوية نهايته هي مسألة التقابل السياسي بين الصديق والعدو، أي إمكانية القتال المستمر على أرض الواقع. إنها أشبه ما تكون بحالة «حرب الجميع ضد الجميع» كما طرحها توماس هوبز.

ولكي تظل مسألة الصراع تجسيدا لما هو سياسي، فإن الخلاف السياسي ليس خلافاً عقلانياً حول وجهات نظر، ويدور في إطار الحوار واحترام الرأي الآخر؛ لكن تكشف طبيعة السياسي عند شميت («Schmitt») - وبصورة معينة عند الشعبويين - عن صورة الإنسان الذي يمثل لغزاً وحضوراً ديناميكياً دائماً، ومن ثم تبقى إمكانية الشر قائمة في الحياة الإنسانية، وهذا ما تجسد الشعبوية اليمينية اللعب على أوتاره، عندما يحصر النظام السياسي أو النخبة السياسية الحاكمة - وفقاً لمقتضيات النظام الديمقراطي الليبرالي - في إطار الشر الغالب على مواقفه الخادعة تجاه مطالب واحتياجات الجماهير أو الشعب.

وتطرح شانتال موف («Chantal Mouffe») في عملها: المفارقة الديمقراطية، وتحت عنوان: الديمقراطية في أوروبا «تحدي الشعبوية اليمينية»<sup>7</sup>، وكيف أن الشعبوية تعلن سقوط السياسي، وتجاوز مراحل اليسار واليمين إلى مرحلة ما بعد السياسي من خلال بناء عدائية opposition بين الشعب people والمؤسسة السياسية establishment.

= السياسي والاجتماعي، فقد رأى أن الإنسان يُعدُّ مخلوقاً متغيراً خطراً، وأن السمة الأساسية للحياة الإنسانية هي التمييز بين الصديق والعدو في ظل الصراع السياسي.

The Routledge Dictionary of Twentieth - Century political Thinkers, Routledge, London, 1998, pp.222-223.

7 - Chantal Mouffe, Democracy in Europe: The Challenge of Right-wing Popwism, in the Democratic paradox, verso Book, London, 2000.



كما تكشف «موف» عن تلك المفارقة التاريخيّة anachronism لعصر ما بعد الأعراف أو التقاليد المرعية post-conventional من خلال العودة لقوى عَمَى عليها الزمن، وغير عقلانية.

وعندما نتحدّث عن نهاية السياسي كمقدمة، أو السبب الرئيس لتفشي ظاهرة الشعبويّة؛ فإننا نقصد بالسياسي هنا ما تم التعارف عليه من توجهات النظرية السياسيّة الديمقراطية التي عجلت في حد ذاتها بالنهاية، حيث عجزت عن إدراك الدور الأساسي والمحموري للأهواء والانفعالات في تشكيل الهويات الجماعية، وهذا الأمر عينه هو سبب أو جذر فشل النظرية السياسيّة في استيعاب مصطلحات وممارسات ظاهرة الشعبويّة، وكيفية التعامل معها.

**عندما نتحدّث عن نهاية السياسي كمقدمة، أو السبب الرئيس لتفشي ظاهرة الشعبويّة؛ فإننا نقصد بالسياسي هنا ما تم التعارف عليه من توجهات النظرية السياسيّة الديمقراطية التي عجلت في حد ذاتها بالنهاية.**

وإذا كانت الليبراليّة - أو بتعبير أكثر دقة المبدأ الليبرالي - قد لعب دوراً حاسماً في التصور الديمقراطي «للسيادة الشعبيّة» popular sovereignty في كثير من بلدان العالم؛ بأن العجز الديمقراطي عن تحقيق المطالب والأهداف الشعبيّة، والدفاع عن حقوق الشعب، والتي تمت مصادرتها من قبل النخب السياسيّة، هذا العجز طمس موضوع السيادة الشعبيّة من السجل

الديمقراطي الليبرالي عند الممارسة السياسيّة، وهذا ما أسهم - إلى حدّ بعيد - في النشأة المعاصرة للشعبويّة اليمينيّة - التي صارت في ظل الافتقار إلى النقاش أو الحوار الديمقراطي المؤثّر - قادرة على إنجاز مخططاتها من خلال أحزاب سياسيّة أصبحت تمثل صوت الشعب Voice of People .

وعندما نحاول الربط بين نهاية السياسي - بالمعنى النظري في الآونة الأخيرة، مع صعود وتألّق الشعبويّة بمنطقها الخاص الذي لا يتوقف عند حدود أيديولوجيا يمكن بيان ملامحها في ظلّ ممارسات تكرر أسلوباً من الشعبويّة، أو الحشد الجماهيري في ظل حالة من الفوضى العميقة - فإننا



مضطرون للعودة إل الوراء بعيداً، وفي نهاية القرن التاسع عشر، حيث تكاد الليلة تشبه البارحة، فالطلاب الروس - من أنصار الحركة «النارودنكية» أو إرادة الشعب «باللغة الروسيّة» - وجهوا هجوماً عنيفاً على الدولة القيصريّة التي مثّلت عنف الرأسماليّة الروسيّة الوليدة آنذاك، وما تلحقه بمصالح الفلاحين من تدمير. وبالموازاة كانت أمريكا في الوقت نفسه تعاني في غربها وجنوبها، وعبر قطاعات ريفية واسعة من تراكم الفقر والظروف القاسيّة، ومن ثم فإنّ حزب الشعب الأمريكي (الشعبي) راح يندد بالدولة في مقابل التقارب مع الكنائس الأصولية. وعلى نحو متزامن (تقريباً) رفع الجنرال الفرنسي «بولانجيه» راية تصحيح الدستور بهدف إسقاط النظام البرلماني في الجمهوريّة الفرنسيّة الثالثة، والذي رأى في استمراريّة هذا النظام خيانة للشعب، وهكذا نتبيّن كيف مثّلت نشأة الشعبويّة روح التحدي والمواجهة مع النظم والسياسات السائدة آنذاك.

وما بين الحربين العالميتين لم تعد جمهورية «فايمار» Weimar في ألمانيا كفيّلة بإزاحة وطأة الشعور بالهزيمة الجاثمة على صدر الشعب الألماني في الحرب العالميّة الأولى، إلى أن قامت «النازية» بزعامه «هتلر» بتقديم خطابها الشعبي الحماسي الملتهب، والذي صادف هوى لدى جماهير الشعب الألماني المتعطشة للتأّر والانتصار، وعلى المنوال نفسه طرحت «الفاشيّة» في إيطاليا تحت قيادة «موسوليني» رؤيتها الشعبويّة لتتحقق فوضى الإلهام الشعبي من قبل زعامات كاريزمية.

ومن أوروبا إلى أمريكا اللاتينية، حيث حمل الراية الشعبويّة حركات وجماعات مثّلت تحدياً وصراعاً مع قلة حاكمة احتكرت موارد الشعب الأساسيّة، وأتت النزعة الشعبويّة بما يسمى «البيرونية» نسبة إلى «خوان بيرون» بالأرجنتين، «وهايا ديلا توري» في البيرو، وإيبارا في الإكوادور، وجيتوليو فارجاس في البرازيل، وتمت تعبئة الجماهير وتوكيد الهوية الوطنيّة والقوميّة في مواجهة الإمبرياليّة الأمريكيّة، وفي آسيا وأفريقيا حدثت التعبئة، وتم العمل على توكيد الهوية من خلال: سوكارنو (إندونيسيا)، عبد الناصر (مصر)، سيكوتوري (غينيا)، نكروما (غانا).

ومرة أخرى في أوروبا في النصف الثاني من القرن العشرين بدت الشعبويّة اليمينيّة تأخذ طريقها إلى النجاح والتألق في السويد، فنلندا، الدانمارك، النرويج... وهكذا يمكن وضع أسس النشأة، ووضع مراحل التطور عبر موجات ثلاث: الأولى: في نهاية القرن التاسع عشر، والموجة الثانية: في حقبة ما بين الحربين العالميتين، أما الثالثة: في فترة الاستقلال، وإنهاء الاستعمار، وأخيراً الرابعة: في نهاية الحرب الباردة، وانطلاق العولمة<sup>8</sup>.

وبهذا نلاحظ وجود طفرة تقود من موضوعاته (رايفيه) إلى تناول ما بين طبقي للشعب، ومن التنديد بالرأسمالية المعولمة إلى التأكيد على الحماية والانكفاء، إلى التمحور على العرق والسلالة، ومن قوميّة رومانيّة إلى سيادويّة تنديد بالعولمة. والملحوظ في الحين ذاته تواصل النقد المعادي للنخب وثباته، والمطالبة بدولة جديدة، واستمرار العداء للرأسمالية، لكن من دون بديل واضح<sup>9</sup>.

ما بين الحربين العالميتين  
لم تعد جمهورية «فايمار»  
Weimar في ألمانيا كفضيلة  
بإزاحة وطأة الشعور  
بالهزيمة الجاثمة على  
صدر الشعب الألماني في  
الحرب العالميّة الأولى، إلى  
أن قامت «النازية» بزعامة  
«هتلر» بتقديم خطابها  
الشعبي الحماسي الملتهب.

وعندما نطالع الرهانات القوميّة والدينيّة الشعبويّة؛ فإننا بإزاء عددٍ من الرهانات تحدد محاور الخطاب السياسي للشعبيات اليمينيّة، وتنعكس هذه المحاور رهانات التأثير والبحث عن المكاسب السياسيّة، والإطاحة بالخصوم، من أجل بسط النفوذ والهيمنة على إرادة الشعب، وتتمثل هذه الرهانات في الآتي:

### 1 - الشعب بوصفه إرادة مطلقة:

لا تتجلى إرادة الشعب في كونها دلالة على كل فئات الشعب بمختلف أطيافه كما ترى الشعبويّة؛ بل تتحدّد إرادة الشعب في فئة معينة تحمل صورة

8 - ينظر في «برتران بادي، «العود الأبدي»، في أوضاع العالم 2019: عودة الشعبويات، إشراف برتران بادي ودومينيك فيدال، ترجمة نصير مروة، مؤسسة الفكر العربي، بيروت، 2019.

9 - المرجع السابق، ص 16.

الشعب «الأصيل» أو السكان الأصليين، وإقصاء ما يمكن عدّهم سكاناً دخلاء، كالمهاجرين مثلاً.

## 2 - الدفاع عن الهوية القوميّة والتقاليد الدينيّة:

إننا نتحدّث هنا عن فكرة النقاء العرقي، والجذور الدينية أو الأصولية في المسيحية والإسلام، في مواجهة النخب، والأجانب، وأيضاً ضدّ القيم الليبراليّة بإيمانها الراسخ بالفردية والعقلانيّة السياسيّة، وما ينتج عن تنامي الرأسماليّة الجديدة ممثلة في الشركات والمؤسسات عابرة القوميات. ولعل الوحدة الأوروبيّة، وما نجم عنها من محاولة إيجاد هوية أوروبية موحدة، تمثل صدارة التحدي والرفض من قبل الخطابات الشعبويّة، كما تتخذ الشعبويّة اليمينيّة من «الإسلاموفوبيا» أو الخوف من الإسلام ذريعة من أجل إظهار العدائيّة للمسلمين.

## 3 - إظهار العدائيّة للأجانب والمهاجرين:

وتعلن الشعبويّة اليمينيّة صراحة عداها للمهاجرين، وخاصة المهاجرين المسلمين مع تدفّق الهجرات إلى أوروبا وأمريكا، ومع ما يسمى «بالربيع العربي 2011م» والحرب على الإرهاب في الشرق الأوسط، وقد تناول الباحث الهولندي «مايندرت» الأحزاب اليمينيّة الشعبويّة كنسق فكري موحد من خلال برنامجها المعادي للهجرة والمهاجرين، وأطلق عليها اسم «أحزاب ضد الهجرة» Anti-immigration parties؛ لكونها ترى المهاجرين مشكلة في أربع صور مختلفة:

- 1 - تهديد للهوية الإثنيو وطنية.
- 2 - سبب رئيس للبطالة والجريمة.
- 3 - مظهر لانعدام الأمن الاجتماعي.
- 4 - مستغلون بسوء لما توفره دولة الرفاه<sup>10</sup>.

10 - التيار اليميني في الغرب: الصعود والتأثير، مركز الفكر الاستراتيجي للدراسات، بيروت، 2017، ص 11.

#### 4 - إعلان العدائية للنخب والأحزاب السياسيّة الحاكمة:

وتتهم الشعبويّة النخب والأحزاب الحاكمة بأنها منظومات سياسيّة فاسدة، تعمل من خلال قلة محتكرة لمقاليد الأمور دون النظر إلى المصالح الوطنيّة.

وإذا نظرنا إلى الرهانات التي تطرحها الشعبويّة اليمينيّة على المستوى القومي والديني؛ فإننا نتحدّث عن إمكانية السيطرة العاطفيّة على الجماهير أو الناخبين، بعيداً عن منطق العقلانية والتنظير السياسي، كما تكشف النزعة المحافظة التقليدية لدى الشعبويّة اليمينيّة عن مدى إدراكها لولع الجماهير بما هو روحاني / ديني، ولا عقلاني، ورغبة الجماهير في توجيه النقد، وإلقاء تبعية ما يلحق بها من ضرر على النظام السياسي القائم.

إذا نظرنا إلى الرهانات التي تطرحها الشعبويّة اليمينيّة على المستوى القومي والديني؛ فإننا نتحدّث عن إمكانية السيطرة العاطفيّة على الجماهير أو الناخبين، بعيداً عن منطق العقلانية والتنظير السياسي.

#### 3 - تداعيات المخاطر المحتملة:

هل يمكن أن تمثّل الشعبويّة الخيار الأنسب للقوى السياسيّة في صراعها ضد المؤسسة السياسيّة - النخبة الحاكمة؟ هل تعد الشعبويّة تجاوزاً لمرحلة الثنائيّة التقليديّة: اليسار / اليمين، التي حكمت الحراك السياسي في العالم، خاصة في أوروبا؟

وإذا اتفقنا مع رؤية لاكلو «Laclau» للشعبويّة، والتي تمثّل لديه منطقاً سياسياً يؤكد الهوية الجماعية، ويناوئ هذا المنطق ما تم التعبير عنه من قبل الفلسفة السياسيّة بمنطقها القائم منذ أفلاطون، "الذي رأى أن السياسة هي شأن نخبة قليلة من الحكماء، ممن يستمدون شرعيتهم من امتلاك المعرفة بما ينبغي أن يكون عليه المجتمع"<sup>11</sup>. غير أن رؤية «لاكلو» تكشف عن إشكاليتين: «الأولى: نظرية، وهي تتعلّق بعدم كفاية ما طرحه

Laclau, op. cit. preface.



من شروط لوصف أي حركة بالشعبوية، أما الثانية: فعلية، وهي أن الشعبوية لا تحمل منطقتاً سياسياً، بل إنها - وعلى العكس - تحوي نفيًا لما هو سياسي<sup>12</sup>.

وإذا نظرنا من الوجهة السياسيّة فإن اليمين واليسار يمثلان وجهين سياسيين متقابلين، لكن يمكننا الحديث عن يمين محافظ أو يمين الوسط (معتدل)، أو حتى اليمين المتطرف الذي يمكن تمييزه عن اليمين الشعبوي، مع الوعي بأن الأخير وُلد في أحضان اليمين المتطرف؛ لكن في اليمين الشعبوي تم تجاوز الوقوف عند حدود التعصّب العرقي والطائفي المعلن فحسب إلى تقديم برامج سياسيّة تخاطب وتداعب تطلعات الطبقات الفقيرة أو المهمشة، والمتضررة من سياسات النخب التقليدية الحاكمة. والحال نفسه مع اليسار بمختلف أطيافه، معتدل، راديكالي.... إلخ. أي إننا بصدد تصنيف سياسي يقوم على توجهات ورؤى سياسيّة عقلانية محددة، لكن مع الشعبوية يتم اصطناع عدو، وتحديد في كيان معين قائم بالفعل، ويلزم القضاء عليه في مقابل أسبقية الهوية القوميّة بالتعريف الشعبوي أو أصالتها مقارنة بالعدو، الذي يلزم وصفه «بالدخيل». ومن منطلق الخصومة المستحكمة مع السلطة القائمة عادة من قبل الشعبوية لا يمكن عدّها استراتيجية سياسيّة بديلة تصلح لتبني القوى السياسيّة الديمقراطيّة لها. ومن هنا يمكن القول: إن تداعيات الحضور الشعبوي اليميني تفسح المجال للفاشية في طورها الجديد.

إن احتكار الشعبوية لمنطق سياسي وحيد يحكم الممارسة السياسيّة يُعدُّ خطراً على القيم الديمقراطيّة من ناحية، وعلى توكيد الهوية القوميّة من منظور شعبي من ناحية أخرى، وما يستدعي الاهتمام البحثي ما تشير إليه المخاطر المحتملة مستقبلاً بالصعود المتزايد لأحزاب الشعبوية اليمينية في أوروبا خلال الآونة الأخيرة، وهذا ما تفسره ثلاث نظريات كالتالي:

12 - ينظر في Slavojzizek «Against the Populist Temptation» Critical Inquiry 32, Spring 2006.

## 1 - نظرية الحرمان النسبي:

وتمثل رغبة فئات محدّدة في التجمّع - بسبب ما جرى لها جراء التحولات الاقتصادية والاجتماعيّة - في تصويت عقابي ضد الأحزاب السياسيّة التقليديّة، ليصبّ هذا التصويت في صالح الأحزاب الشعبيّة؛ دون اهتمام هذه الفئات بمحتوى الخطاب السياسي الشعبي أو حتى البرنامج السياسي.

## 2 - نظرية السياسة الجديدة:

وقد جاءت هذه النظرية نتاجاً لعدم قدرة الأحزاب السياسيّة على القيام بمسؤولياتها في حل المشكلات الاقتصادية والاجتماعيّة للجماهير، مما يفقد الثقة في الممارسة السياسيّة القائمة. وفي الوقت نفسه يسمح هذا الأمر بظهور خيارات سياسيّة غير مألوفة وجديدة، مثل الشعبيّة اليمينية.

إنّ احتكار الشعبيّة لمنطق سياسي وحيد يحكم الممارسة السياسيّة يُعدُّ خطراً على القيم الديمقراطيّة من ناحية، وعلى تأكيد الهوية القوميّة من منظور شعبي من ناحية أخرى.

## 3 - نظرية الطلب الاجتماعي:

يعود الصعود المتزايد للتيارات الشعبيّة اليمينية إلى أنها تصادف هوى لدى قطاعات عريضة في المجتمعات الأوروبية خاصة؛ إذ تعاني هذه القطاعات من القلق، والخوف على الهوية، ورفض قيم الحرية والتضامن الإنساني<sup>13</sup>.

وعندما نطالع نتائج الانتخابات في أوروبا ما بين عامي 2016 - 2017، فإننا نلاحظ ارتفاع نسبة التصويت لصالح الأحزاب الشعبيّة اليمينية من 8.5% عام 2000 إلى نسبة 24.1 عام 2017م. وفي بريطانيا - عندما جاءت نتيجة استفتاء 33 يونيو 2016 لصالح الخروج من الاتحاد الأوروبي بنسبة 52% - كان الداعم الأكبر والمحفّز للوصول إلى هذه النتيجة هو «حزب استقلال المملكة المتحدة» وزعيمه «نايجل فاراج» السياسي البريطاني

13 - ينظر في: ريناس بنافي، صعود اليمين المتطرف، الأسباب والتداعيات: دراسة تحليلية في:

<https://democratical.De>



الشعبي، الذي جعل همّ حزبه ونشاطه المكثف خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي. وفي العام نفسه في نوفمبر 2016م جاء انتخاب «دونالد ترامب» رئيساً لأمريكا، ليكون أول رئيس يقدّم نفسه بوصفه ممثلاً للإرادة الشعبوية (الشعبوية) ضدّ النخبة السياسيّة في واشنطن.

وفي فرنسا في عام 2017م تمت هزيمة الأحزاب السياسيّة اليساريّة واليمينية على حد سواء، في مقابل أفضل نسبة تصويت للحزب اليميني المتطرّف، أو الشعبوي اليميني الذي يتزعمه «لويان» من خلال ترشح «ماري لويان»، ولولا الدعم المالي والإعلامي والنخبوي المؤثر تجاه «ماكرون» ما كان لينال الفوز بالرئاسة.

وفي ألمانيا حقّق الحزب الشعبوي اليميني الألماني «البديل من أجل ألمانيا» نجاحاً مؤثراً عندما حصل على 90 مقعداً في الانتخابات التشريعيّة في ألمانيا.

ومن الجدير بالذكر أننا لا نستطيع الإشارة إلى نتائج الانتخابات التشريعيّة والرئاسيّة في أوروبا، دون النظر إلى الدعم القادم من فئات اجتماعية جديدة، لم يكن في الحسبان السياسي أن تمنح أصواتها لحزب شعبي يميني لكن على سبيل المثال، الطبقة العماليّة - التي عانت من جراء سياسات الاتحاد الأوروبي، والاقتصاد العولمي - قامت بتدعيم الأحزاب الشعبويّة، وإعطاء صوتها لها بنسب متزايدة ومتباينة في البلدان الأوروبية. وفي الوقت نفسه استطاعت الأحزاب الشعبويّة أن تستميل فئات عمرية شابة، بالإضافة إلى إرساء قواعد تصويته لها في المناطق الريفية.

إن القراءة المتأنية في وقائع صعود الأحزاب الشعبويّة اليمينيّة - بما تمثّله من مخاطر محتملة على الساحة السياسيّة - تكشف عن حالة الصخب السياسي والإعلامي المصاحب للنزعة الشعبويّة في المجال العام، حيث تدور النقاشات والمجادلات والتعليقات التي توجز بداية جديدة لمفهوم السياسي كما لم نعرفه أو نفهمه من قبل، لكن كما تصنع صياغاته الخطابية والشعارات الشعبويّة، حاملة لواء التعبير عن الإرادة الشعبويّة.



ومن الإرادة الشعبيَّة التي يعبر عنها حزب «الجبهة الوطنيَّة الفرنسيَّة» بزعامة «جون ماري لوبان» نستقرئ حالة العداء مع المهاجرين من كل الأعراف والطوائف الدينيَّة، خاصة المسلمين، بل ومع كل من ليس فرنسياً «أصيلاً» من وجهة نظر الحزب اليميني، وعلى المنوال نفسه تتزايد شعبيَّة حزب «الحرية» النمساوي، الذي تمتدّ جذوره الليبراليَّة الوطنيَّة إلى النازيَّة، بزعامة «يورك هايدر»، وخلفه الزعيم الحالي «هانيز كريستيانشراش». وقد استطاع الحزب الذي تأسس في عام 2013م أن يحقق انتصاراً مدوياً في الانتخابات. ونعود إلى حزب «البديل من أجل

ألمانيا»، الذي تبدو انطلاقتُه ليبراليَّة يمينيَّة متطرِّفة، تؤكِّد على مناهضة حكومة «ميركل»، وعدم السماح للاجئين بالقدوم إلى ألمانيا وقد وضع على لائحة برنامجه السياسي، عدم السماح بالحجاب في الجامعات والمؤسسات العامَّة، ومنع ختان الأطفال اليهود والمسلمين، مع توكيد الهوية الألمانيَّة، وعدم فقدانها تحت دعوى التسامح مع الآخر، مع أحقية الألمان - مثلما فعل البريطانيون - في الخروج من الاتحاد الأوروبي.

**إنَّ القراءة المتأنية في وقائع صعود الأحزاب الشعبيَّة اليمينيَّة - بما تمثَّله من مخاطر محتملة على الساحة السياسيَّة - تكشف عن حالة الصخب السياسي والإعلامي المصاحب للنزعة الشعبيَّة في المجال العام.**

ولعلَّ التحولات العميقة في السياسات الغربيَّة والأوروبيَّة - على وجه التخصيص - قد جمَّدت ما يمكن تسميته بالنظريات والأيديولوجيات السياسيَّة، وأخمدت صوت الممارسة الديمقراطيَّة الليبراليَّة، في ظل فشلها المتزايد في تلبية المطالب وتحقيق الأهداف الجماهيريَّة، وقد أسهمت كل تلك التحولات - وما ترتب عليها من آثار على أرض الواقع السياسي - في تعزيز فرصة الجماعات والأحزاب الشعبيَّة اليمينيَّة لاستقطاب قطاعات جماهيريَّة عريضة من الطبقة العاملة والمتدينين، والتي صارت تصب جام غضبها على النخب الحاكمة.



إن الخطر الحقيقي ليس كامناً في صعود الشعبويّة اليمينيّة المتوجّه نحو السيطرة على المجال السياسي الأكثر رسوخاً وعراقاً في العصر الحديث في أوروبا، وبطريقة تراوغ كل ما تم التعارف عليه سياسياً، وما تم دراسته وفهمه من خلال تاريخ الفكر الإنساني السياسي، هذه المراوغة التي قد تقضي إلى نهاية أو موت السياسي بمعنى النظرية والتطبيق معاً، لكن الخطر الأكبر قادم من حالة تردّي النخب السياسيّة في انفصالها عن المشكلات الحياتيّة اليومية للجماهير، وعدم النظر بجديّة إلى مشاعرها وعواطفها المؤثّرة في الشأن السياسي، مما يقدّم الدليل والحجة الدامغة للشعبويّة اليمينيّة في كيل اتهامات الفساد وخيانة تطلّعات وطموحات الجماهير أو الشعب.